المقدمة

احتشد جمع من المستثمرين الدوليين ورجال الأعمال وأصحاب الملايين والمليارات في قاعة فاخرة مملؤة عن آخرها تحت ثريات كريستالية ضخمة؛ في انتظار ظهور الأمير الشاب الذي كان يدير أغنى دولة في العالم العربي، ليلقي كلمة. كان ذلك في خريف عام ٢٠١٧، حيث حضر الجميع إلى الرياض، عاصمة المملكة العربية السعودية، لحضور مؤتمر استثماري فخم أطلق عليه بشكل غير رسمي اسم "دافوس الصحراء" حتى يبدو فريدًا من نوعه كالاجتماع السنوي الذي يجتمع فيه سماسرة النفوذ العالميين في جبال الألب السويسرية، وحتى يجني نتائج مماثلة أيضًا. ومع ذلك، كان لهذا المؤتمر هدف مختلف؛ وهو إقناع رجال المال المجتمعين بأن الوقت قد حان للمراهنة بقوة على المملكة العربية السعودية.

على مدى الأيام الماضية، عملت المملكة بجد لإقناع الآلاف من ضيوفها بأن أي تصورات مسبقة لديهم عن المملكة العربية السعودية ليست صحيحة، أو على الأقل في طريقها إلى عدم كونها صحيحة. قيل لهم إن البلاد كانت تتغير، وتنفتح وتتخلى عن ماضيها كمملكة إسلامية شديدة المحافظة والانعزال.

لطالما عُرفت المملكة العربية السعودية بأمرين: النفط والإسلام. أما عن النفط فقد تجمعت منه كميات كبيرة تحت رمال المملكة لدرجة أنها حولت عائلتها المالكة، آل سعود، إلى واحدة من أغنى السلالات في العالم، مما أعطى الدولة التي تحمل اسمها أهمية جغرافية استراتيجية كانت ستفتقر إليها لولا ذلك النفط. وقد شكلت الثروة النفطية الهائلة الاقتصاد السعودي، مما أفاض على طبقة النخبة من الأمراء ورجال الأعمال ثروة هائلة بينما بقى معظم المواطنين في منازلهم أو حصلوا على رواتب من الوظائف الحكومية التي تدفع بشكل جيد وغالبًا ما تتطلب القليل من العمل.

لم يكن الإسلام الرسمي للمملكة هو أي إسلام، بل كان الإسلام الوهابي، وهو تفسير الدين تفسيرًا متشددًا للغاية وغير متسامح. وقد تغلغلت هذه الوهابية في تاريخ المملكة، وعلّمت المؤمنين أن يكونوا حذرين من "الكفار" غير المسلمين، ونصت على قطع رؤوس القتلة وتجار المخدرات في الساحات العامة، وحرمان النساء من الحقوق الأساسية. مما جعل المملكة أكثر صرامة بكثير من معظم المجتمعات الإسلامية الأخرى، لكن وضعها كوصي على أقدس الأماكن الإسلامية، في مكة والمدينة، منحها نفوذًا فريدًا بين ١,٨ مليار مسلم في العالم.

عرف القادة السعوديون سمعة مملكتهم المضطربة، لذلك تم التخطيط للمؤتمر بعناية لتحدي رؤية الحاضرين عن البلاد. تناول الضيوف لحم الضأن المشوي وكمأ الشوكولاتة في عشاء خاص استضافه الأمراء والمسؤولون في منازل فخمة بها حمامات سباحة ومعارض فنية وخزائن خمور مخفية. وظهرت النساء ظهورًا بارزًا في البرنامج واختلطن بحرية مع الرجال في مقهى فندق ريتز كارلتون، دون أي التزام بتغطية شعرهن، كما كان يجب عليهن في أماكن أخرى.

استقطبت العروض التقديمية الرائعة المستثمرين للمبادرات الكبرى. ستصبح المملكة العربية السعودية مركزًا عالميًا للشحن والنقل. ستنتشر خيارات الترفيه لمواطنيها البالغ عددهم ٢٢ مليون نسمة، مع المتنزهات الترفيهية ودور السينما وأماكن الحفلات الموسيقية، والتي كانت جميعها ممنوعة منذ فترة طويلة لأسباب دينية. ستزدهر السياحة مع تطوير المواقع التاريخية المهملة منذ فترة طويلة وإنشاء منتجع بيئي عالمي المستوى في البحر الأحمر. وفي حال شك أي شخص في أن التغييرات كانت حقيقية، فإن المملكة ستعمل أخيرًا على تغيير اللوائح التي كانت لفترة طويلة المثال الأساسي على اضطهادها للمرأة: ففي يونيو ٢٠١٨، ستسمح لهم بالقيادة.

كانت الرسالة واضحة: تغييرات ضخمة كانت جارية في المملكة العربية السعودية، والرجل الذي يقودها كان ابن الملك، الذي يتحلى بالغموض وإدمان العمل، واسمه محمد بن سلمان. كان يبلغ من العمر ٣٢ عامًا وقد ظهر لإعادة صياغة المملكة -والشرق الأوسط الأوسع- بأسرع ما يمكن.

جاء المشاركون في المؤتمر، الذين كانوا يجلسون على كراسي قطيفة أو على بساط أسود، ليتبينوا أمر الأمير الشاب. هل كان حقيقيًا؟ هل كان زعيمًا ذا بصيرة من شأنه أن يجر المملكة العربية السعودية من ماضيها المحافظ أم مغرورًا متهورًا من شأنه أن يزج بها إلى الحضيض؟

سرت همهمة في القاعة عندما انفتح باب جانبي، وظهر الأمير. كان يرتدي الزي التقليدي للرجال السعوديين: ثوب طويل أبيض اللون من الأمام، وغطاء رأس باللونين الأحمر والأبيض مثبت في مكانه بعقال أسود؛ وصندل أسود. كان بدينًا، بسبب ولعه بالوجبات السريعة، وكانت له لحية غزيرة وصلت في ارتفاعها إلى أعلى خديه، مما يوحي أنه كان مشغولاً جدًا بالعمل لدرجة أنه لا يجد وقتًا لإضاعته في التزين الزائد. صعد إلى المنصة محاطًا بمساعديه وتتبعه المصورون وكاميرات التلفزيون، وجلس على كرسي أبيض.

لقد انقشع عنه الغموض قبل أقل من ثلاث سنوات، أميرًا من بين آلاف الأمراء، فُتن بقمة هيكل السلطة في المملكة وخطط لاعتلائه. عندما تولى والده المسن، الملك سلمان، العَرش في عام ٢٠١٥، أعطى ابنه الإشراف على أهم حقائب المملكة: الدفاع والاقتصاد والدين والنفط. بعد ذلك، بعد أن نحى الأقارب الأكبر سنًا جانبًا، أصبح وليًا للعهد، مما ووضعه في المرتبة التالية على العرش. ظل والده على رأس الدولة، لكن كان من الواضح أن الأمير محمد كان الحاكم العملي والمشرف والمدير التنفيذي للمملكة.

ولتمييزه عن بقية أقاربه الملكيين، أشار إليه المراقبون السعوديون والشعب السعودي بالأحرف الأولى من اسمه MBS. لقد كان رجلاً ضخمًا له حضور يملأ الغرف. في السر والعلن، استغنى عن العادات العربية الرسمية بين القادة العرب وتحدث بسرعة باللهجة المحلية، ملوحًا بيديه الكبيرتين، وصوته العميق الهادر. غالبًا ما كان يفيض بالطاقة، وكانت أفكاره تتدفق بسرعة كبيرة لدرجة أنه كان يقاطع نفسه في منتصف الجملة. خلال لقاءاته مع مسؤولين أجانب، كان يتمسك أحيانًا برؤيته للمستقبل لمدة ساعة أو أكثر دون توقف للأسئلة. وذكر مسؤول أجنبي أن ساق الأمير لم تتوقف عن الاهتزاز أثناء لقائهما، مما جعله يتساءل عما إذا كان الأمير متوترًا أو يعاني من نوع من المنشطات.

على خشبة المسرح في ذلك اليوم، خاطب محمد بن سلمان مديرة الحوار باللغة الإنجليزية ليُظهر لضيوفه الأجانب أنه قادر على ذلك، ثم انتقل إلى اللغة العربية للكشف عن مشروع آخر شديد الطموح: نيوم، المدينة التي سترتفع من قطعة أرض معزولة في الصحراء بالقرب من البحر الأحمر. حيث يقوم رجال الأعمال بكتابة القوانين وإغراء أفضل العقول في العالم للابتكار على التراب السعودي. التخطيط لمستقبل ما بعد الكربون والاستفادة من الشمس السعودية، ستعمل المدينة بالطاقة الشمسية ويعمل بها العديد من الروبوتات التي قد تفوق عدد سكانها. قال محمد بن سلمان إن نيوم ستكلف ٥٠٠ مليار دولار وستكون مكانًا "للحالمين". لم يكن مشروعًا للتنمية الاقتصادية، بل "قفزة حضارية للبشرية".

خفتت الأضواء وشاهد الجمهور شريط فيديو مبهرجًا عن المدينة المقترحة. ثم سألت مديرة الجلسة، وهي صحفية أجنبية، عما إذا كانت المحافظة الدينية في المملكة ستعيق مشروعًا يركز على المستقبل. رفض محمد بن سلمان فكرة أن عدم التسامح كان جزءًا من تاريخ السعودية، وأصر على أن المملكة تسعى إلى التواصل مع بقية العالم لصالح الجميع.

> "لم نكن هكذا في الماضي. نحن نعود فقط إلى ما كنا عليه، إسلام معتدل ومتوازن ومنفتح على العالم وعلى جميع الأديان وعلى كل التقاليد والشعوب.
>
> سبعون بالمائة من الشعب السعودي تقل أعمارهم عن ٣٠ عامًا. بكل صدق لن نضيع ثلاثين عامًا من حياتنا في التعامل مع أي أفكار متطرفة. سوف ندمرهم اليوم على الفور. نريد أن نعيش حياة طبيعية، حياة تترجم ديننا إلى تسامح وعادات وتقاليد جيدة، وسنعيش مع العالم ونساهم في تنمية العالم كله."

انفجر الجمهور في التصفيق، لأنه لم يسبق لزعيم سعودي أن يعلن مثل هذا التعهد على الملأ قط.

بعد أسبوعين، ظهرت حقيقة أشد قسوة. حيث استمرت على مدى بضعة أيام، حملة اعتقالات اعتقل فيها مسؤولون من الديوان الملكي والشرطة السرية المئات من أغنى وأقوى الرجال في المملكة العربية السعودية، بما في ذلك عدد من أقارب محمد بن سلمان من العائلة المالكة، وحتى بعض الذين حضروا حفل زفافه. تم تجريدهم من هواتفهم المحمولة وحراسهم وسائقيهم وحُبسوا في فندق ريتز كارلتون بالرياض، مما حول مكان المؤتمر الاستثماري الفاخر إلى سجن من فئة الخمس نجوم. كان هناك مستقبل جديد في الطريق للمملكة العربية السعودية، ولكنه سيشمل ما هو أكثر من الروبوتات وقيادة النساء.

وقالت الحكومة إن الاعتقالات كانت حملة على الفساد فرحب كثير من السعوديين بالفكرة. فلطالما شاهدوا الأمراء ورجال الأعمال وهم يشقون طريقهم نحو التعاقدات المربحة أو يديرون مخططات أخرى لسرقة ثروات من خزائن الحكومة. وكان بعض من حُبسوا في فندق الريتز من بين أسوأ الجناة.

لكن الجناة المعروفين الآخرين ظلوا أحرارًا، بمن فيهم بعض أقرب أبناء شقيق الملك سلمان، مما أثار الشكوك حول الأهداف الحقيقية للحملة. كانت الجوانب الأخرى غريبة أيضًا. وأثناء تنفيذ الاعتقالات تم الإعلان عن اللجنة التي تقود التحقيقات. كان يقودها محمد بن سلمان، الذي لم يتم التحقق من مصدر ثروته قط. ألم ينفق الأمير نفسه ما يقرب من

نصف مليار دولار على يخت؟ ماذا عن قصره الفرنسي، الذي وصفته المجلات بأنه "أغلى منزل في العالم"؟ في وقت لاحق، قام مشتر بالوكالة قيل إنه يعمل لصالح محمد بن سلمان بدفع ٤٥٠,٣ مليون دولار مقابل لوحة ليوناردو دافنشي. من أين أتت كل هذه الأموال؟

قيل للمعتقلين في فندق ريتز إنهم ضيوف على الملك، لكن معاملتهم كانت بعيدة كل البعد عن معاملة الضيافة. ومع استمرار محنتهم، اتصل أحباؤهم بي بحذر ليلعنوا محمد بن سلمان. كانت إحداهم من عائلة أعمال سعودية ذات شأن قالت إنها لم تسمع شيئًا من قريبها المحتجز لأسابيع حتى اتصل بها فجأة.

قال لها "أنا بخير"، مقنعًا إياها أنه في صحة تامة.

وانتهت المكالمة في ثلاث دقائق.

لقد اعتبرت الحملة القمعية حيلة من محمد بن سلمان للسيطرة على عاصمة المملكة لتحقيق مآربه الخاصة بينما تُلطخ سمعة كل من قد يتحداه.

وقالت لي "إنه مختل عقليًا. إن صدره مشحون بالضغينة، فهو يريد كسر الناس، ولا يريد أن يكون لأي شخص اسم مُشرَّف إلا هو. إنه شيطان، بل الشيطان يتعلم منه".

بعد بضع سنوات فقط، أصبح محمد بن سلمان القوة المهيمنة في المملكة العربية السعودية وواحدًا من أكثر القادة ديناميكية وتمحيصًا في العالم. لم تكن شهرته مخططًا لها. فطوال معظم حياته، كان تائهًا وسط حشد من الأمراء الأغنى والأكثر خبرة ومتأخرًا في أسفل طابور الحكم في عائلة سادت فيها الأقدمية. إذًا كيف فعل ذلك؟ هذا الكتاب يروي القصة.

يمكن أن يكون محمد بن سلمان أكثر حكام المملكة العربية السعودية أهمية منذ أن أسس جده المملكة قبل ثمانية عقود وجعلها شريكًا رئيسيًا للولايات المتحدة. جاء صعود محمد بن سلمان بعد ستة عقود من وفاة جده، خلال فترة تهديدات خطيرة لأغنى دولة في العالم العربي. كان سعر النفط ينهار، مما يضعف اقتصادها. كان ثلثا مواطنيها تحت سن الثلاثين، يتدافعون للحصول على الوظائف، ويُحتَقرون تحت قيود اجتماعية صارمة. وفي الشرق الأوسط الأوسع، كان جهاديو الدولة الإسلامية يهاجمون العراق وسوريا ويقصفون المملكة. وكانت إيران، عدو المملكة العربية السعودية، تستغل الاضطرابات في المنطقة لتوسيع نفوذها.

تفاقم هذه التحديات أثار الشكوك حول التزام الحليف الأكثر أهمية للمملكة: الولايات المتحدة. حيث لم يكن الرئيس باراك أوباما مغرمًا بالمملكة. وقبل أن يصبح رئيسًا، كان قد

نبذ المملكة العربية السعودية ووصفها بأنها حليفة "مزعومة" وانتقد تصديرها للوهابية لإذكائها عدم التسامح في العالم الإسلامي. وقامت إدارته فيما بعد بصياغة اتفاق نووي مع إيران بينما أقر الكونجرس تشريعًا يسمح للأمريكيين بمقاضاة المملكة العربية السعودية بشأن الهجمات الإرهابية في ١١ سبتمبر ٢٠٠١؛ كان خمسة عشر من الخاطفين التسعة عشر بالإضافة إلى زعيمهم أسامة بن لادن من السعوديين. كانت كلتا الخطوتين صفعات لاذعة لمملكة تعتمد على الولايات المتحدة للحماية، وتنفق مليارات الدولارات على الأسلحة الأمريكية، وتتوقع ولاءً معينًا في المقابل.

كان محمد بن سلمان يهاجم كل هذه المشاكل وأكثر، مغرقًا المملكة في حرب في اليمن، ومطلقًا خطة لإصلاح الاقتصاد؛ ومستميلاً المديرين التنفيذيين من وول ستريت وهوليوود ووادي السيليكون؛ ومختطفًا رئيس وزراء دولة أخرى؛ ومقيمًا علاقة قوية وغير محتملة مع الرئيس دونالد ترامب وصهره جاريد كوشنر. أما داخل المملكة، فكان يحد من هيبة رجال الدين، ويفتح دور السينما وأماكن الحفلات الموسيقية، ويحطم التقاليد، ويحبس أفراد العائلة المالكة الآخرين -بما في ذلك والدته- ويستبد استبدادًا تكنولوجيًا حيث يزرع جواسيسه داخل هواتف الشعب، ويتلاعب بوسائل التواصل الاجتماعي، ويؤدي إلى جريمة قتل شنيعة من شأنها أن تصدم العالم.

ركب صعود محمد بن سلمان على موجات الاتجاهات العالمية. نظرًا لتركز المزيد من ثروات العالم في أيدي عدد قليل من الناس، استخدم السلطويون الشعبويون الخطاب القومي لحشد شعوبهم مع إغلاق منافذ المعارضة. مثل الحزب الشيوعي في الصين والديكتاتوريين الصاعدين من مصر إلى المجر، لم ير محمد بن سلمان أي حاجة لفرض رقابة على سلطته وسَحَقَ كل التهديدات التي يتعرض لها، سواء كانت ملاحظة أو لا. فهذه حقبة تكون فيها "المملكة العربية السعودية أولاً"، ولن يوقفه أي شيء لجعل المملكة العربية السعودية عظيمة مرة أخرى، حسب مفهومه.

ارتفع المد القومي في الدول الغربية أيضًا. وجذب تصويت بريطانيا لترك الاتحاد الأوروبي وانتخاب الرئيس ترامب في الولايات المتحدة اهتمام المواطنين والحكومات إلى الشئون الداخلية، وقطع دعمهم لحلفائهم السلطويين الخاملين. وقد أظهر هذان الحدثان أيضًا أن الحقيقة في السياسة غالبًا ما تكون أقل أهمية من المشاعر التي يمكن أن يثيرها المرء على وسائل التواصل الاجتماعي. كان هذا درسًا تعلمه محمد بن سلمان جيدًا، واستخدمه في مملكته.

محمد بن سلمان شخصية مثيرة للانقسام بشكل كبير، أشاد به أنصاره باعتباره مغير قواعد اللعبة الذي طال انتظاره في منطقة تتألم من أجل ظهوره، ورفضه الأعداء باعتباره ديكتاتورًا وحشيًا في طور التكوين. داخل المملكة العربية السعودية، هو عملاق وجهه في كل مكان –مطبوع على أغطية الهواتف المحمولة ومعلق على مداخل مراكز التسوق– ويتم ترويج كل مبادرة له على أنها ضربة معلم من قبل معززين وصحفيين مخلصين. لكن الكثير عنه يظل غامضًا. لقد أوقفت موجات الاعتقالات النقاش العام حول خلفيته، وحكمة خططه، أو قدرته على تنفيذها. ولكن يزداد الحماس في بعض القضايا، مثل انفتاح الحياة الاجتماعية وحصول النساء على وظائف لم تحلم بها أمهاتهن. لكن الخوف منتشر على نطاق واسع لدرجة أن المنشور الضال على وسائل التواصل الاجتماعي أو التعليق الخاص قد يؤدي إلى الاعتقال أو السجن بحيث يتجنب العديد من السعوديين التحدث عبر الهاتف، بل وقد يضعون أجهزتهم في الثلاجة عند لقائهم.

محمد بن سلمان هو أصل كلتا الظاهرتين، مدفوعًا بنزعتين ظهرتا في بؤرة الاهتمام في أواخر عام ٢٠١٧ عندما جذب مؤتمر الاستثمار، وفي الوقت نفسه، حبس البعض في فندق ريتز. إنه مصمم على منح السعوديين مستقبلاً مشرقًا ومزدهرًا، ويمارس استعدادًا لا يتزعزع لسحق أعدائه. جنبًا إلى جنب مع بعض الصفات الأخرى، من المرجح أن تقود هذه السمات أفعاله بعيدًا في المستقبل.

قد يعتبر البعض أنه من الحكمة –إن لم يكن التهور– تأليف كتاب عن مثل هذا القائد الشاب الذي يمكن أن يحكم بلاده لعقود. لكن هذا الكتاب لا يسعى إلى سرد القصة الكاملة لمحمد بن سلمان، ولكنه يروي صعوده الرائع وتأثيراته على المملكة وعلاقاتها مع الولايات المتحدة والشرق الأوسط الأوسع. وفي النهاية سيحدد محمد بن سلمان إلى أين ستذهب قصته بعد ذلك. وإليكم كيف بدأت.